سيرة فدوى..

المرأة والوطن

السيرة الذاتية لا تعرى كاتبها فقط، بل تعرى عملية الكتابة ذاتها، تنزع القناع عنها وتفضح سترها، وثمة وظائف أخرى على كاتب السيرة مراعاتها بخلاف تعرية حياته، يستطيع كاتب السيرة واقعيًا كان أم خياليًا، أن يكتب من جديد ما رآه أو سمعه بنفسه، أو بالتنويه المحسوس أو المخمن، كاتب السيرة شاهد على العصر بما ينفى كونها " سجلًا من سجلات الدفتر خانة"، ويلتقى ذلك مع ما ألمح إليه مصطفى سويف، وأسماه "الأنوار الكاشفة" وهو مصطلح نقله سويف من مجال البحوث النفسية إلى مجال السيرة الذاتية.. ففى هذا النقل فائدة هى: الالتقاء فى الذاكرة بين ما هو اجتماعى عام وما هو شخصى، وتؤدى الأنوار الكاشفة وظيفة استيعابية للذكريات المتوهجة، متعلقة بأحداث شخصية تكونت بفعل ظروف قومية أو دولية، فالسيرة الذاتية تتغذى وتنمو مع أحداث تاريخية واجتماعية يمر بها المجتمع الذى ينتمى إليه كاتب السيرة الذاتية, فالسيرة هنا تقترب من الشهادة.

يرى البعض أن انتشار المذكرات واليوميات والسير الذاتية يتزايد فى فترات "الاضطراب السياسى" ومع وجود تمفصلات تاريخية حادة، يحدث نوعًا من الجدل السياسي.

إن كتابة السيرة الذاتية لمبدعة لها خصوصيتها فى الكتابة، تقدم مفهومًا مغايرًا لوظيفة الفن؛ إن كان للفن وظيفة بجوار جمالياته، وهو - بلا شك - عند فدوى فؤاد عباس له دور ارتبط بكيان الوطن ووجوده داخل الوجدان الفلسطينى، فلا معنى للأدب إن لم يعالج جروح شعب فقد الوطن، وأصبح يعانى الغربة والاغتراب.

إن الكتابة السردية هى كتابة تعتمد على الحكى بالأساس، وعلى التحليل، وهى فى كل الأحوال تجربة إنسانية فى لحمتها وسداها، قد تتدثر بالأفكار والآراء الفلسفية والأيديولوجية، فإذا كانت هذه الكتابة تنتمى للسيرة الذاتية، أو رواية السيرة الذاتية، فنحن أمام درب من البوح واجتراح الذات ومساءلتها، وكشف العلاقة بين الذات وذوات الآخرين.

" فدوى" تجربة إبداعية لها مذاقها السردى.. فهى سيرة مغايرة لسير الأخريات، لا حاجة بى لتعدد أسماء المبدعات اللاتى كتبن سيرهن الذاتية، لكن سيرة فدوى فؤاد عباس تختلف، فهى ليست سيرة ذاتية لشخصية بعينها، إنها سير لذوات وشخصيات ووطن وبشر عاشوا المنافى والشتات والضياع، إنها - فى المجمل - سيرة إنسانة فلسطينية تحمل بداخلها - أينما ذهبت - وطنها السليب، تتمتع السيرة بما يمكن أن نطلق عله سمة التشجير والتشابك وليس التشذر،

هذه السمة نلحظها فى غالبية كتابات فدوى الإبداعية والنقدية، إضافة للتكرار، وتعدد الصياغات لفكرة واحدة، أو موقف، أو حدث واحد، لعل مرجع ذلك أن الكاتبة تكتب ذاتها، تكتب بماء الرومانسية، وهى تحيا حالة من الطيران والتحليق، مثل طائر هائم فى سماء الوجود، ومن ثمّ فإن مساحة اللاوعى كبيرة، الأحلام والأطياف والأمنيات، مسارات تشكل طرقًا تسير فيها الكاتبة لتبلغ منتهاها، على الرغم من أن الكاتبة تصف نفسها فى غير موضع بأنها عقلانية.

فدوى عباس شغوفة بالتنظير لأعمالها وتقديمها عبر التحليل والوقوف على أسرار كتابتها، وتقديم استراتيجية لهذه الكتابة، وهذا الأمر قد يتفق معه البعض أو يختلف، أعتقد أننى من الصنف الثانى، وبخاصة حينما ترفق هذا التنظير عبر مقدمة ضافية فى صدارة عملها الإبداعى.. هى تأخذ بيد متلقيها، تبصره بالجوانب الدفينة، وتبرر له ما قد يرى أنه لا لزوم له، هكذا تكتب فدوى عباس.

أعتقد أن لدى القارئ دربة طويلة فى قراءة الأعمال الإبداعية، تجعله فى غير حاجة إلى مثل هذه المقدمات.

علينا أن ندرك أن اختيار الكاتبة لاسمها عنوانًا لسيرتها الذاتية معناه كشف ذاتها، وتقديمها دون مواربة أو خوف أو من وراء قناع، لكنى أرى أن الكاتبة قدمت نفسها فى صورة ناصعة البياض، بينما رمت البعض بالنقص والعوار، من منا ليس له نقيصة، لكن فدوى تتدثر بالصدق الفنى ليقيها منزلقات الكتابة الصريحة والجريئة فى

السيرة الذاتية كما كتبتها فدوى طوقان وكوليت خورى وغادة السمان ولطيفة الزيات والحبل على الجرار.

الاسم غنيّ بالدلالات، تُرى فدوى فدت من؟

إنها منذورة للوطن " فلسطين".. هكذا كتبت فدوى عن فلسطين من بداية السيرة إلى نهايتها.

ربط القدر بين ميلاد فدوى ونكبة فلسطين 1948م، فهى من مواليد هذه الفترة، ذهل الجميع ومن هول الصدمة نسى الأب تسجيل تاريخ مولد ابنته! أصبحت الطفلة بلا تاريخ، لكنها تمسكت بهويتها الفلسطينية، ففى غير موضع تشير إلى أنها فلسطينية تعيش فى المنافى، وتتوق إلى الرجوع لوطنها الذى سرقه الصهاينة.

هذه السيرة تؤثر فيها عدة عوامل، أولها احتلال الوطن وكره الصهاينة لما تضمنته ممارساتهم من بشاعات وجرائم ضد أصحاب الأرض، الضعف الجسمانى لصاحبة السيرة وخوفها من الموت، دور الأم المائع من الابنة وتذبذب هذه العلاقة! معاداة التوأم" القطة والسليطة لها "، وترصدهما لها، وممارسة كل أنواع القهر والعنف عليها، المنافى والشتات وأثرهما على الإنسان الفلسطينى وتغير نسق القيم.

نجد مناطق مضيئة تكمن فى علاقة الساردة بوالدها وإعجابها به، الحديث عما قدمه لفلسطين، المحافظة على الهوية الفلسطينية، دور المدرسة والمدرسات والصديقات والجامعة وأساتذتها الجامعيين فى صقل شخصيتها، علاقتها بأفراد الأسرة؛ الأجداد، العمات،

الأعمام والأخوال، علاقتها بالزوج د. محمود قمر، تأثرها بالزعماء والمبدعين من شعراء وروائيين إلخ، الاهتمام بالأدب والفلسفة وعلم الجمال وحب اللغة العربية والبلاغة؛ كل هذه العوامل كونت وجدان الساردة، ستظل هذه المجالات تتداخل وتتقاطع وتنفصل وتتمحور حول الذات الساردة، مشكلة لحظات الحزن والأمل والفرح واليأس والخوف والفزع فى حياة فدوى .

خلال هذه اللحظات نتعرف على فدوى الإنسانة، لكن تبقى لهذه السيرة – سيرة الوطن السليب – الصدارة، سواء بمناجاة الأب، والتوجه إليه بالحديث، وتذكيره باللحظات والمواقف التى عاشاها معًا، والمعاناة التى اقتسماها، ومشاركتها للحلم الطوباوى الذى عاشه الأب، حلم العودة للوطن، ولما تعثر تحقيق الحلم جلس إلى مكتبه يكتب أطلس القدس.. وكم تصفحت الطفلة كتب مكتبة الوالد وناقشته فى آرائه، تناجى فدوى والدها قائلة: "كم كنت قريبة من مساحة روحك الكبيرة يا أبى، وكم كنت قريبة من حبك الكبير لفلسطين" ومنذ الصغر أدركت فدوى أنها تشبه والدها إلي حد كبير، على الرغم من ضعفها وتبرمها بالحياة، هذا الإحساس عوضها معاملة جدها لها، فهى فى نظره نصف ولد.

تحب فدوى أمها لحبها لفلسطين، فتلقب أمها بـ " منشدة فلسطين " أحبك حبًا مقدسًا، وأفديك بروحى يا أمى.. وأدعو لك يا أمى بطول العمر". مع ذلك فإن الساردة ترفض أن يتحول هذا الحب إلى عبودية لأمها.

فـى مقدمتها الطويلـة تؤكـد الكاتبـة علـى فكـرة الـوطن والمـوطن والمواطنـة، وعلـى الحريـة وقيم الجمال والأخـلاق، وكيـف أنهـا تربـت علـى هـذه القيم، ووعـت منـذ الصـغر أهميـة أن يكـون للإنسـان وطـن ينتمى إليه. حتى لو سرق منه وطنه.. فعليه ألا ينسى هذا الوطن، يذكر نفسه فى كل لحظة أنه ابن لوطن عليه أن يستعيده، هذه هى البؤرة السردية التى تدور السيرة فى فلكها.

لا يهم كتابة الوقائع الحياتية فى تسلسلها، ولا يطلب السرد من السارد أن يلتزم بذلك. علينا أن نتذكر ما قاله الشاعر الكبير ميخائيل نعيمـة عنـدما كتـب سـيرته الذاتيـة متسـائلًا: هـل يمكـن أن يتـذكر الإنسان وقائع سبعين عاماً؟

إن كاتـب السـيرة ينتقـى مـا يمكـن أن يشـكل سـيرته، يغفـل – عـن قصد أو بدون قصد – ما تعرفت إليه حياته من أحداث وبشر ووقائع وتـاريخ، لكنـه أبدًا لا يمكن لـه أن يكتبهـا دون خلفيـة تاريخيـة، تحمـل وتبرز الواقع، فالإنسان لا يعيش فى فراغ، إنما يتأثر بكل ما يحيط به من أحداث.

لكـن هـذه الوقـائع لا تـأتى متسلسـلة: أ يعقبهـا ب، أى زمـن ممتـد نحـو الأمـام، فزمن السيرة بمـا يعتمـد علـى الـذات واسـتكناهها يـرفض منطق الواقع ويبحث عما هو أرحب، ما يتيح لـه التجول بحريـة أمـام الوقـائع والأحـداث الشخصـية، لكـن علـى المبـدع أن يلتـزم بالصـدق الفنـى.

كل من يقرأ سيرة "فدوى" ويبحث عن أسرار صندوق الحكايات الأنثوية الشخصية سيصاب بخيبة أمل، لأن الراوية تريد تقديم ما تراه يفيد قضيتها كمواطنة "فلسطينية"، سرق وطنها، كما سرق تاريخها وزيتونتها وبيارة الأجداد وأرض الأجداد، كما سرق تاريخ ميلادها! كيف حرمت من الاحتفال بعيد ميلادها مثل كل الصغار، هى التى ولدت من رحم النكبة، وشربت لبن الشتات.

إن سمة التكرار تتسق تمامًا مع ما تصرح به فدوى "أحاول أن أرسم صورة ذهنية داخلية لنفسى، وأحب أن أوصف بالكاتبة النفسية؛ التى تهتم بالنفس الإنسانية، فالنفس بلا شك مبهرة ورائعة وهى أيضًا مراوغة.. هذا هو الفعل الإنسانى.

ستتكرر أفعال عدّة لعل أكثرها "أكتب" بجانب الفعل أحكى، أروى، فالكتابة هى تدوين ما تراه فدوى وما تعتقده وتؤمن به، أما فعل أحكى فهو فعل مرتبط بالعاطفة والحنين للوطن فلسطين، إنه يعتمد على الماضى سواء القريب أم البعيد، وهو ما يرتبط بوقائع لم تعشها فدوى.

فعل الكتابة لدى فدوى يوازى فعل الكينونة، بل هو الكينونة، القراءة والكتابة هما الطريق للمعرفة وتشكيل الوجدان، ولمعلماتها دور كبير فى تشكل وعيها وإدراكها معنى التفوق الدراسى، وحب الفن أسلمها لاكتشاف جمال صوتها، فصدح صوتها بأغنيات من أحبت من المطربين، تتذوق الموسيقى، وتنضم إلى "جمعية الموسيقى" تتعلم العزف على آلة المندولين، وتعشق الرقص، كل هذا يتلاءم مع

طبيعتها الرومانسية.. المدرسة / التعليم فى الستينيات كان لها دور بارز فى تربية الأجيال، كل مدرسة كانت تضم مكتبة ضخمة، وكانت حصص المطالعة الحرة جزءًا لا يتجزأ من المنهج الدراسى، أدرك عبد الناصر أن بناء جيل يعنى بناء وطن، لذا كان الاهتمام بصحة الأبناء، تذكر كاتبة هذه السطور، الفطائر اللذيذة المصنوعة من الدقيق واللبن وجبن الشيدر، وسندوتشات الحلاوة الطحينية والمربى التى كانت توزع على طلبة المدارس قبل نهاية اليوم الدراسى، تذكرنا فدوى بذلك، فحص الأسنان والتحاليل الدورية والتطعيم ضد الأمراض المتوطنة.. كل ذلك قبل أن نعرف التأمين الصحى وبهدلته!. كان الأطباء يتنقلون بين فصول المدرسةن يفحصون الأطفال ويعطون الدواء، كانت أياماً وانقضت! هذه الحقائق ترويها فدوى مؤكدة أن الزعيم جمال عبد الناصر أولى التعليم أهمية خاصة، وسمح للطلاب الفلسطينيين أن يتعلموا بالمجان فى الجامعات المصرية، وعلى الصعيد الشخصى تقول فدوى عن المدرسة: "المدرسة فى الستينيات كانت عاملًا مساعدًا لى، لتخضر أغصانى، ولقد وضعت لنفسى هدفًا. لن أقبل منك يا ذاتى هذا الحزن الأسود".

تقاوم فدوى أفعال التعنت والعنف والشدة والظلم الواقع عليها كلّها؛ بدنيًا ونفسيًا بالتحليق، وهذا التحليق جاء فى صور شتى، منها: أن تسير ناظرة إلى السماء الواسعة، أو تراقب الطيور فى رحلات تحليقها، أو ترقص الفالس، أو تركب الدراجة أو تقرأ مجلات

الأطفال، وتعيش فى مجلة "سندباد" ومجلة "سمير"، هكذا ينعجن الحركى بالنفسى بالمعرفى ليكون فعل التحليق، وستظل صاحبتنا تحلق فى الأفاق علها تصل يومًا إلى مرفأ الوصول لوطنها الذى زارته مرة، وتحدثت فى أكثر من موضع عن تلك الزيارة التى غمرت روحها بزخات أنعشت روحها.

أكتب سيرتى الذاتية، وأعترف أن للسيرة الذاتية أفخاخها، لكن "التخاطر" يجبرنى على الكتابة، لعلى أشعر بالارتياح، فسيرتى الذاتية تحمل مكابداتى السيكولوجية، وقد تفضحنا سيرتنا الذاتية، ولا أعرف إن كانت تعذبنى هذه الكتابة أو تؤلمنى.. لكنى أشعر بأننى يجب أن أكتبها سواء بإرادة منى أو دون إرادة .

تكتب فدوى دون اهتمام بالنوع الأدبى الذى تندرج تحته تلك الكتابة، هل هى سيرة ذاتية، أو سيرة روائية، أو رواية واقعية تتخذ من الأحداث السياسية موضوعاً لها؟

الحقيقة أن كتابة فدوى عباس تتداخل فيها الأجناس الأدبية: السرد والحكي والشعر والتحليل السياسى والوقائع التاريخية إلخ.

يتربص الموت فى كل لحظة بالطفلة المولودة من رحم النكبة، تلاحقها الطائرات والغارات، العيش على الكفاف فى معسكرات اللاجئين، على مساعدات الأونروا، وهنا أتذكر ما روته الكاتبة الفلسطينية مروة جبر فى كتابها "نداء السنونو".

لا حقّ الفقر الأسرة، افتتح الجد والأب دكانًا لبيع الأقمشة، بعد أن استقر فى القاهرة، إلا أن الفقر ظل ملازمًا لهذه الأسرة كبيرة العدد،

هذا الفقر سيؤثر على مستقبل الفتاة فتعيش ضحية فقر الأسرة، ضعف البنية الجسدية، والخوف من الموت فى أية لحظة. لقد أورث الفقر الشقاق والنقار والمشاجرات بين أفراد الأسرة، حتى رحل من رحل، حاولت الساردة مساعدة الأسرة، جمع الأسرة قانون الكل يساند الكل، وبناء على هذا القانون تسافر فدوى مع أخيها إبراهيم فى رحلة عمل إلى جدة لتوفر الريالات كى تساعد رب الأسرة، وفى لفتة رائعة تشير فدوى إلى مدى قوة الاقتصاد المصرى آنذاك، تقول فدوى أن ما كان يرسل لأبيها لم يكن يتعدى مائة جنيه!

انتقلت الأسرة لعيش فى مصر الجديدة، تحسنت أحوالها بعض الشيء، إلا أن الأسرة ظلت تعانى آثار الفقر، وما ترتب عليه من سلوك التوأم. ومعاناة الأب الذى ظل يجاهد فى سبيل توفير العيش الرغد لأبنائه، إضافة إلى ألم الاغتراب عن الوطن، تحلم الفتاة بالعودة إلى الوطن، لكن الحلم يتعثر، وتكون الرومانسية وسيلة ناجعة فى ترميم النفس والوجدان، تحلم بالفارس الذى يأتى بحصانه ويخطفها إلى آفاق رحبة، هذه الرومانسية لا تتعارض مع كون صاحبتنا فتاة مسيسة حتى أظافرها، تتحدث فى السياسة، ولها آراء مخالفة لشباب جيلها، تحذر فى أحاديثها من أطماع الصهيونية، وكيف يستعيد الشعب الفلسطينى وطنه، ويحافظ على الهوية الفلسطينية، تكرر الساردة تساؤلاتها عن الدوافع التى تجعل الإنسان يحكى باطنه.

هل هو الهروب من الواقع إلى ماض جميل.. أو غير جميل؟

الوطن / فلسطين حاضر، إن لم يكن هو البطل الرئيس لهذه السيرة سواء بالوصف الجغرافي، المدن والقرى والمساجد والبيارات والزراعات والزيتون والبحر والشواطئ والحجارة إلخ، حكايات فلسطين، وحواديتها التى سمعتها من جدتها، أغنيات أمها، أبناء عمات وخالات يزورون الأسرة، ويتحدثون عن بشاعات العدو الصهيونى ومحنة الأسرى، والضغوط التى تمارس على فلسطينيى الداخل لطردهم من أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم. رددت قصائد شعراء فلسطين محمود درويش وسميح القاسم وهارون هاشم رشيد ومعين بسيسو وتوفيق زياد وكمال ناصر، عبرت عن رأيها النقدى فيما كتبه محمود درويش، وتنبأت أن شعره سوف يحمل القضية الوطن إلى العالم بأسره، وكتبت عن شعر محمود درويش كتابًا نقديًا أشاد به النقاد.

تذوقت ما كتبه أدباء فلسطين: غسان كنفانى الذى صور مأساة الإنسان الفلسطينى فى الشتات، وجبرا إبراهيم جبرا، والفنان ناجى العلى، والمفكر العالمى إدوارد سعيد، وبالطبع فؤاد عباس الذى تصفه فى أكثر من موضع بالعبقرى الذى حافظ على تراث القدس من الاندثار أو تزوير الاحتلال الصهيونى ونسبة هذا التراث لليهود، وهو ما أفلحت فيه إسرائيل – للأسف – خلال العقود الأخيرة، وفى غفلة من العرب نتيجة الهجمات الشرسة من الامبريالية الصهيونية.

هل تكتب فدوى بجرأة شديدة؟

سؤال يطرح نفسه عندما تعلن فدوى أنها تكتب بجرأة شديدة لتكشف التناقض بين الثقافة والجهل "خرجت من أحزانى على فقدى لوطنى، لأنجح أسرتى اقتصاديًا وعلميًا واجتماعيًا، وأملى كان فى أن تكون لى أسرة ناجحة مترابطة، إلا أننى اكتشفت أن الاستقرار العائلى شرخته النكسة".

تطاحن أبناء الأسرة الواحدة، وبخاصة البنات " اللقطة وتوأمها السليطة " ستظل نار الحرب مشتعلة بين فدوى/ الثقافة والتوأم / الجهل، بين العطاء والطمع والجشع، بين التعفف والنهم، بين التسامح والسلام النفسى والحقد والكراهية .

لا يدرى المتلقى الأسباب الحقيقية لهذه الحرب التى تمثل تكسير عظام بطلتنا، فتحاول بكل السبل تفاديها لتعيش فى سلام، لكن هيهات، ظل التوأم يتحين الفرص؛ لينقض على فريستيهما.

يتوازى مع هذا سلام حدث بين العرب وإسرائيل، تحذر منه فدوى، وتصفه بأنه سلام الخراب؛ ليدمر الإنسان الفلسطينى، ويحاول أن يطمس قضيته، رأينا كيف حوصر بعدها الإنسان الفلسطينى، وحبس فى القطاع "أى سلام يمكن أن ترضى به إنسانة فقدت تاريخها، واقتلعت من جذورها، لذا سنجدها فى نهاية كتاب السيرة تحذر العرب وتستنجد بهم أن يفيقوا من غفلتهم التى يحيونها، وفى الفصل الأخير تحت عنوان " العروبة خالدة" تطالعنا هذه العبارة "حزنى على الدماء البريئة التى تسيل من أمتنا العربية، لا حدود له الدم البريء

الطاهر تشربه أرض العروبة دعنى أسكب الدموع يا ملهم.. لقد نمنا يا ملهم فترة طويلة"

فدوى بين أخواتها هى الأجمل، ذات شعر هفهاف وبشرة بيضاء مشربة بحمرة وعينان ملونتان صافيتان وقوام رشيق جميل، بينما التوأم أقل جمالًا، يميلان للقصر وامتلاء الجسد نتيجة شراهة فى طبعهما، وبعد الزواج صارا لحيمتين، الرقة والوداعة لا تملك أن تردع الشراسة وقبح الروح، كان التفوق من نصيب فدوى، أحبت الاكتشاف والتحصيل والقراءة والبحث، وأحبتها المدرسات، وأثنى عليها أساتذتها فى كلية الآداب جامعة عين شمس، وتنبأ لها كبار النقاد أنها ستكون شاعرة كبيرة، واكتشف بعضهم أنها متذوقة للأدب بما يؤهلها للعمل بالنقد، كلما تتقدم فدوى نحو هدفها تتذكر ما قاسته من قسوة أمها، ومحاولاتها الدءوب لقولبتها داخل متطلبات البيت من كنس ومسح وغسل الأطباق إلخ، رفضت فدوى التقوقع داخل هذا الإطار. يذكرنى ذلك بما ذكرته عائشة التيمورية فى سيرتها، أرادت أمها أن تعلمها فنون البيت التى يجب أن تتعلمها الفتاة آنذاك من معرفة فنون التفصيل وأعمال الإبرة والكانفاه والحياكة، تركت كل ذلك، واتجهت إلى الشعر، وارتادت مجلس والدها الأدبى تستمع وتناقش كبار المبدعين.

أحبت الراوية اللغة العربية، وهى فى ذلك تتفق تمامًا مع والدها، أجادت العربية وعرفت جمالياتها وامتلكت بلاغتها، وهو أمر باد فى كتابات فدوى، غير أن طبيعة فدوى الرومانسية جعلتها تحرص على

الرومانسية، وتستحضر عناصر الطبيعة: الطير والشجر والنسيم والعصافير... إلخ فى كتابتها، الأمر نفسه بالنسبة لتركيب الجملة التى حُمّلت بالتكرار، فتطول الجملة وتتراكم العبارات والفقرات، وتفصيل المجمل، صارت اللغة العربية الوجه الآخر للوطن.

"أكتب بلغة أوليها عنايتى.. فاللغة عندى شديدة الأهمية، أكتب بشجن وكأننى أعزف مقطوعة موسيقية"

تقدم لنا الكاتبة أفراد أسرتها وطبائعهم النفسية والجسدية والمزاجية، طموحاتهم وإحباطاتهم، وكيف آل بهم الحال، ماذا صنع الشتات؟

إبراهيم توأم الروح هو رفيقها فى رحلة إلى الوطن ورحلة عمل بجدة، أما ناصر فقد اختار المنافى، لم يقدر على تحمل الحياة الصعبة فى الوطن العربي. لم يعد يرحب – فى نظره – بوجود الفلسطينى، عليه ألا يتكلم، هو مضطهد فى عمله لا حق له، كان الحل الوحيد هو الترحال والهجرة ، أما أحمد فقد ارتبط وجوده بوجود فدوى تعلق بها، بينما نجوى إنسانة عملية متزنة وعاقلة وملتزمة، أما التوأم الذى لم تصرح باسميهما فهما أحد العناصر المنغصة فى حياة فدوى، لم يتعاطفا معها فى محنة فقد الزوج، عيرتها أختها بعقمها وعدم إنجابها، حسداها على الحب والسعادة التى عاشتها مع زوجها د. محمود، والنجاح فى الحياة، حاولت فدوى التصالح معهما لكن دون جدوى، تدخلت القطة فى حياتها ولم يردعها رادع، ما تريده تحصل عليه بأى ثمن, " أختى التى تصغرنى فهى جامحة وتحصل

على ما تريد بعنف ومنذ صغرها، القطة ترى كينونتها فقط .. تلجأ إلى العنف لتحقيق ما تريد. أصبحت شرهة للمادة بينما فتاتنا تصف نفسها بأنها " فتاة رومانسية حالمة متأملة، أتأمل الحياة وفى هذا التأمل يكمن الارتياح لنفسى المضطربة"

بنية السيرة

كما سبق القول فإن الكاتبة تقدم لسيرتها بمقدمة ضافية تتساءل فيها: لماذا تكتب سيرتها، وتحاول تصنيفها، أو تطرح عدة تساؤلات حول نوعية هذه الكتابة، وأسباب الكتابة – الآن– للسيرة .

قسمت الكاتبة سيرتها إلى فصول، جاءت هكذا: الفصل الأول "قالت النكبة".. داخل هذا الفصل عناوين فرعية عدة، منها "يا شبيهى فى الإنسانية أجبنى.. أجبنى: هل كتب على الشعب الفلسطينى أن يتألم ألمًا أزليًا؟ كيف تسرق أرضنا التى عشنا فيها آلاف السنين؟

هذه الأسئلة الاستنكارية سنلحظها داخل بنية السيرة؛ حتى يصل الأمر إلى حد استصراخ الإنسانية واستنهاضها أو إفاقتها من سباتها الطويل؛ الذى ساعد فى سرقة وطن وتشريد شعب!

وعنوان "وحدى تعلمت أبجدية الحياة" يتكرر بصيغ مختلفة داخل بنية السيرة، حيث تقدم الساردة كيف أنها عركت الحياة، وتعلمت من التجارب التى مرت بها، فكل ما صادفته تحول إلى مجال معرفى أثر فى كيان هذه الكاتبة " فالكون يكشف لى نفسه كلما مرت السنون "

المدهش أنّ بعض الفقرات تتكرر داخل النص السيرى، وكأنها مرتكزات تؤكد عليها الكاتبة.. هذه الفقرات تتحول إلى أعمدة أساسية،

تتغرس فى جسم السيرة لتحملها عاليًا محققة بذلك أهدافها، وهى التأكيد على معان بعينها.

رغم أن الكاتبة تضع عناوين للفقرات فإن السرد يأخذ طابع الفضفضة، والتنقل من موضوع لآخر قد يكون ذا صلة، وقد تنعدم هذه الصلة مباشرة، لكن الأمر متصل بما يكتشفه القارئ عبر التراكم السردى.

يأتى الفصل الثانى تحت عنوان: "أحزان فلسطينية"، تتربع فلسطين – بالطبع – على عرش هذا الفصل، كما هو الحال فى الفصول السابقة والفصول اللاحقة، لكن يتداخل الشخصى مع الوطنى بشكل لافت، وبخاصة مع شخصية د. محمود حيث غلب الطابع الوجدانى على القضية الفلسطينية،" خرجت هائمًا مجروحًا معذبًا تائهًا مشتتًا متألمًا، إننا الهائمون الضائعون المحترقون المجروحون"، "يا إلهى، يا حبيبى، ليت العرب يتركوننا نحرر أرضنا، نحن نفديها بأرواحنا، لكنهم لا يتركونا"

داخل هذه الأحزان ينبثق الفرح، فتحت عنوان "وأسير فى دروب الورد" تتحدث فدوى عن زواجها من الدكتور "محمود قمر" والذى أطلقت عليه "عشيق زوجته".. هذا العشيق الذى سيرحل بعد حياة زوجية هانئة امتدت ثلاثين عامًا، تصفها فدوى "لم يكن وصلك إلا حلمًا فى الكرى، أو خلسة المختلس"

فى هذا الفصل تتحدث فدوى عن دور الثقافة المصرية وانتشارها فى البلدان العربية، علاقة مصر وفلسطين, أثر مصر فى حياتها

وفـى حيـاة الأمـة العربيـة ودورهـا التـاريخى ومسـاندتها للقضـية الفلسطينية، على هذه الوتيرة يسير الفصل الأخير من السيرة العروبية الخالدة، وهو أقصر فصول السيرة، يكاد يكون رسالة مفتوحة لأهل الكنانـة، رسالة حب طالت، لكنها تحمل فى طياتها الألم والعتاب لصديقات مصريات تبدلت مواقفهن، تشعر وهى فى مصر أنها فى وطنها قريبـة مـن وطنهـا الأم، لـن تهـاجر كمـا فعـل غيرهـا مـن الفلسطينيين، يظهر حب جديد وشخصية ثقافية محبة للوطن تطلق عليه الكاتبة لقب"ملهم".

تعتمد فدوى عباس على المشهد القصصى.. حيث تبدأ السيرة بمشهد الطفلة التى تحمل أطباق طعام لوالدها من البيت إلى محله، ومشهد الطفلة مبلولة الملابس تقوم بتنظيف البيت... إلخ، أو سكب اللبن على رأس فدوى، وغيرها من المشاهد، إضافة إلى التخيلات والتأمل فى الطبيعة، ثم حكايات الجدة وأولاد الأعمام والعمات، وهى حكايات تقدم فلسطين والفلسطينيين، فى الماضى والحاضر، حكايات الفرح والحب والعمل والغربة مع أخيها إبراهيم، أو مع الزوج الدكتور محمود قمر، حكايات ترويها فدوى عن شخصيات فلسطينية عرفتها عن طريق والدها وعلاقته بالثوار الفلسطينيين، وهي حكايات ترددت فى الوسط المصرى عقب النكسة.

استحضرت فدوى شخصيات كثيرة، منها فلاسفة ومفكرين وأدباء وشعراء ونقاد وأساتذة جامعة وساسة وشخصيات تاريخية، وثمة وقائع تاريخية ارتبطت بفترة الانتداب البريطانى لفلسطين، نكبة

1948، مذبحة دير ياسين، مذابح صبرا وشاتيلا، اجتياح الصهيونى للبنان... إلخ.

تدين فدوى أدباء جيل الستينيات فى أنهم تقوقعوا على أنفسهم بعد نكسة 1967، أثر ذلك على كتاباتهم فأدانوا الفترة، ووجدوا فى اللجوء للتاريخ ما يعكس خيبة الأمل التى أصابتهم، صوروا الإنسان العربى جاسوسًا وانتهازيًا وخائنًا لوطنه، بينما ترى رواية "الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوى، وتحولها لفيلم سينمائى، والدور الخالد للفنان الكبير محمود المليجى وكتابات يوسف إدريس ونجيب محفوظ، ترى فى ذلك كله انعكاسًا لفترة هامة من نضال الإنسان العربى ضد الاستعمار.

هذه السيرة تمثل فسيفساء من الإبداع والنقد والتحليل، لم تقدم آمال شعب وكفاح، واستنهاض روح النضال لأمة فقط، بل تهب الروح العربية انتعاشات ضلت طريقها لعقود طويلة، وتبث فيها الهمة للعودة لسابق عهدها، فتتبوأ الأقطار العربية مكانتها وهيبتها ووحدتها.

المراجع:

1- مصطفى سويف: نحن والمستقبل

2- أحمد درويش: مقدمة التراجم والسير.